مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات

المصدر: الاهـــــرام

التاريخ : ١٩٧١/٥/٢٨

بصراحة يكتبها محمد حسنين هيكل

السؤال الأول والأكبر ..

كيف نســـتطيع ان نخلق الظروف التى يمكن أن تحـول دون تكرار الكابوس المخيف الذى رزح على كاهل مصر طوال الشهور الاخيرة الماضية ، حتى استفاق منه شعبها وقلبه يدق بعنف ، وانور السادات يهزه برفق ليقول له :

ــ لقد سقط سلاطين الظلام ، وتبددت اشباح الخوف ، ونحن الان على الطريق وعلى المسيرة ، وامامنـا المعـركة ، والبنـاء الاجتماعى والاقتصادى ، والامل ، والنصر » .

هذا هو السؤال !

□

كيف نستطيع ان نخلق الظروف التى يمكن ان تحول دون عودة الكابوس ؟ !

مع العلم بأنه لم يكن مجرد كابوس بالمعنى اللفظى للكلمة ، وانما كان واقعـا داهما تعلق بكاهل مصر واطبق على رقبتها بغلاظـة ، وراحت انفاســـه المضطربة اللاهثة المحمومة تبعث القشعريرة فى كل عصب من أعصاب مصر .

ومع العلم ــ ايضا ــ بأن هذه ليست اول مرة فى التاريخ القريب تقع مصر فيها فريســة لكوابيس الظـلام والخوف التى نطلق عليها اصطلاحا اسم مراكز القوى ؟

كيف وبالنسبة للغـد ، لان بوصلة الحياة تتجـه دائما الى المستقبل وتشير نحوه .

كيف ؟ ولكى تبقى مصر هى مصر ... والقاهرة هى القاهرة ، منارة وشعاعا ، حضارة وعلما ، عزة وكرامة للانسان وبالانسان

كيف ؟ حتى لا تصبح القاهرة كبغداد ــ وقاها الله ــ تحت رحمة جحافل التتار او شراذم البعثيين .

كيف ؟

□

كيف وقد عشنا المحنة مرتين في السنوات الاخيرة ، ولولا عناية الله مع جمال عبد الناصر مرة ، وعناية الله مع انور السادات مرة ثانية — لسقطت مصر فى اعماق الظلام والخوف ولفقدت احلى واغلى ما تملكه وهو : روحها ، روح مصر الحرة الخلاقة والمبدعة .

ولقد كان صعبا ان تتكرر المعجزة مرتين ...

ولكنه سوف يكون مستحيلا — فيما اظن — أن تقع المعجزة ثلاث مرات متواليات لان الله يحب أن يساعد الذين يساعدون انفسهم **وهذه هى المسئولية الواقعة على شعب مصر اليوم .**

□

ان جمال عبد الناصر ، وبعد نكسة سنة ١٩٦٧ ، قاد وحده وفى ظرف حافل بالخطر ، معركة ضد مراكز القوى ، ثم جاءت حركة الشباب المليئة بالتمزق والالم فى فبراير من سنة ١٩٦٨ فساعدته على وضع برنامج للتصحيح عرف فيما بعد ببيان ٣٠ مارس .

لكن مراكز القوى الجديدة التى كانت تعد نفسها لترث مراكز القوى القديمة — ضربت بيان ٣٠ مارس فى ظهره وضربت معه — فى الظهر ايضا — جمال عبد الناصر الذى كان وقتها يعطى نبضات قلبه فعلا لكى تصمد مصر وتقف وتستجيب للتحدى وتستعد للمعركة .

واذكر يوم قامت اللجنة المركزية بانتخاب لجنتها التنفيذية العليا فى ١٩ أكتوبر سنة ١٩٦٨ . وكنت وسط الكواليس فى اللجنة المركزية ارقب ما يجرى واتابع تفاصيله . وظهرت النتيجة على النحو الذى ظهرت به وكان واضحا — بكل الادلة والقرائن — انها مدبرة مرتبة **فيما يتعلق بمجموعة معينة محددة .**

وسئلت وكان سائلى هو السيد شعراوى جمعة وكان

واقفا معنا السيد محمد أحمد سكرتير رئيس الجمهورية وقتها ووزير شئون رئاسة الجمهورية الان ـ سئلت :

ـ ما رأيك في النتيجة ؟ »

وقلت بصراحة :

ـ لو كان فى مقدورى أن امارس حرية الصحافة بغير قيد او حرج لاخرجت الاهرام فى الصباح تحت عنوان كبير يقول : « نجحوا وسقط بيان ٣٠ مارس » .

وسمع الرئيس جمال عبد الناصر بتعليقى على نتيجة الانتخابات وهو مايزال فى مقر الاتحاد الاشتراكى .

وبعد نصف ساعة كنت فى بيتى ، ودق التليفون وكان المتحدث هو جمال عبد الناصر **يسألنى بعد ان عاد هو الاخر الى بيته :**

ـ ما هو تعليقك على نتيجة انتخابات اللجنة التنفيذية العليا ؟ »

وادركت على الفور ان ماقلته قد وصل اليه ولم اكن على اى حال مستعدا للتنصل مما قلت فأعدته عليه **وقال لى :**

ـ ان طول لسانك سوف يجر عليك متاعب كثيرة »

وقلت ضاحكا أحاول تخفيف جو الحديث :

ـ ان لدى منها بالفعل كثيرا ... واى اضافة عليه لا تقدم ولا تؤخر » .

وقال جمال عبد الناصر والجد كله فى لهجته :

ـ هل تعتقد انه حدث «لعب» فى عملية الانتخاب ؟ »

ورويت له شواهدى ، وما رأيت من ادلة وقرائن .

وأحسست فى الايام التالية بآلامه ، وكانت ومضات الحقيقة قد بدأت تتكشف له ، وذهب مرات عديدة فى تلك الفترة الى بيت انور السادات يتحدث اليه بفكره ووجدانه ويستمع منه .

ثم بدا عزوفه عن عقد اللجنة

التنفيذية العليا واللجنة المركزية الا فى حالات الضرورة القصوى ولمجرد الشكل والمظهر واكاد اقسم ــ واستشهد فى ذلك بأنور السادات ــ انه لولا حرصه على معان كان ينبغى الحرص عليها فى ذلك الوقت ــ لاعاد انتخابات الاتحاد الاشتراكى من القاعدة الى القمة .

كان الرجل يتعذب ، وكان عذابه النفسى الى جانب آلام جسده التى لا تطاق فوق احتمال البشر .

لكنه كان يريد للمركب ــ على حد تعبيره ــ ان تعوم ، وكان يريد لمصر ان تقف على قدميها عسكريا باسرع ما يمكن وفى وقت قياسى

كان يراها سنة ١٩٦٧ **ملقاة على الارض** مثخنة بجراحها ، وفى سنة ١٩٦٨ كان يراها **تهم على ركبتيها** وكان يأمل مع سنة ١٩٦٩ وسنة ١٩٧٠ ان تتمكن من **الوقوف على قدميها .**

وعندما وقفت مصر على قدميها كان هو يلفظ النفس الاخير .

□

واذكر ــ **وهذه هى المرة الاولى التى يروى فيها هذا السر** ــ شهر سبتمبر سنة ١٩٦٩

يوم ٩ سبتمبر من هذا الشهر كان جمال عبد الناصر يزور الجبهة ، ثم اذاعت اسرائيل قرب الظهر ان دبابات لها قد نزلت على شاطىء البحر الاحمر . وقطع جمال عبد الناصر زيارته للجبهة وعاد الى القاهرة يتابع أنباء ما تذيعه اسرائيل .

وكان وزير الحربية السابق ينكر ان شيئا على الاطلاق قد حدث على شاطىء البحر الاحمر

واتصل بى الرئيس جمال عبد الناصر تليفونيا يسألنى عما جاءت به وكالات الانباء فى هذا الصدد وقرأت للرئيس فى التليفون كومة البرقيات التى تتحدث عن الموضوع وقال هو فى النهاية :

ــ غريبة ... ان فوزى يؤكد لى ان شيئا من ذلك كله لم يقع ... سوف اطلب اليه ان يتصل بك الآن واقرأ عليه ما قرأت لى »

واتصل بى الفريق فوزى يقول لى :

ــ من أين جئت بما رويته للرئيس ؟ »

وقلت :

ــ ليس لى مصدر غير وكالات الانباء ... ومع انه يبدو لى أن اسرائيل تبالغ فى الصورة ــ الا ان المسألة لابد ان يكون لها أساس » .

وقال لى الفريق فوزى :

ــ كل هذا الذى قرأته على بلا أساس ... وهو نوع من الحرب النفسية » .

وعاد جمال عبد الناصر يتصل بى وقلت له :

ـ ان الصورة كما أراها أمامى نقلا عن وكالات الانباء تقطع بأن انزالا محدودا حدث على شاطىء البحر الاحمر ، ومع انه فيما أرى يستهدف التأثير النفسى الا اننى اعجب من انكاره اصلا واساسا»

وقال جمال عبد الناصر ومازالت فى اذنى نبرات صوته حتى هذه اللحظة :

ـ اننى تلقيت تأكيدا من مصادر أخرى لما حدث

اننى حزين ... حزين ... حزين

لست حزينا لانهم نزلوا بخمس دبابات او ست ، ولكنى حزين لان الذين كان يجب ان يعرفوا ... لم يعرفوا ...

اننى الان اكثر من أى وقت مضى أشعر بخسارتى وخسارة البلد فى عبد المنعم رياض »

واستطرد يقول ـ والله شاهد ـ

ـ اننى مقدر لفوزى جهوده فى اعادة التنظيم . ومهما يكن فلا أظن ان هذه هى القيادة التى سنخوض بها المعركة »

وكانت نبرات صوته تحمل انين الاسد الجريح لكنه كان بجهد انسانى خارق يكتم الالم

وفى اليوم التالى ١٠ سبتمبر ١٩٦٩ لم ينهض من فراشه

وفى يوم ١١ سبتمبر عاده الاطباء ليكتشفوا أنه أصيب بجلطة فى القلب تقتضى الراحة الكاملة ستة أسابيع .

وعندما عرف هو بما به ، وما هو مطلوب منه ، دعا أنور السادات وصارحه بالحقيقة ، وكون لجنة تتولى البت ، نيابة عنه ، فى كل الامور ، ووضع على رأسها انور السادات .

ولم يستطع ان يلزم الراحة ستة اسابيع فعاد الى العمل بعد اسبوع واحد

ثم كان بعد ذلك ـ وفى يوم سفره الى الرباط ومعلوماته عن التآمر عليه هناك ـ **قراره بان يكون انور السادات نائبه فى رئاسة الجمهورية**

كأنه كان يرتب نفسه ... استعدادا لليوم الرحيل

ويوم الرحيل كان الخط واضحا

كانت السلامة السياسية والدستورية والوطنية كلها تحتم ان يتولى رئاسة الجمهورية ... نائب رئيس الجمهورية

ان عبد الناصر ـ وبقدر ما كان يستطيع انسانيا لم يترك لاحد فرصة كى يناور أو يصطدم

كان الخط واضحا ... وكانت المسئولية مخيفة

وسكت الجميع على مضض ، حين جمع انور السادات كل الذين كانوا يحملون فى ايديهم

مفاتيح السلطة فى فترة انشغال عبد الناصر وعذابه مع المعركة والمرض ــ وقال لهم بالحرف فى استراحة القناطر :

ــ ان مصر بعد كل ما حدث لا تتحمل أى توتر جديد

واريدكم ان تعرفوا ان التوتر ليس فى طبعى ... ولا اريدكم أن تتوتروا وينعكس توتركم على الناس

لا أريد أن احكم على الناس بالتقارير

ان جمال عبد الناصر كان قد فقد ثقته فيها وكف عن قراءتها وانا لا اريدها أصلا ومنذ البداية

أريد للناس ان يطمئنوا على ظهورهم

ان الذين لا يطمئنون على ظهورهم لا يحسنون ان يواجهوا العدو بصدورهم »

ومضى انور السادات الى ابعد حد فى بث الطمانينة فى القلوب وقال .

ــ سوف تبقى فى ايديكم كل المفاتيح التى كانت فيها

واريدكم ان تخرجوا من جو السلطة الخفية الى جو السلطة الشرعية الظاهرة وان تسعوا الى الناس وان تأخذوا منهم بمقدار ما تستطيعون ان تعطوهم »

والغريب ان بعضهم تشكك فى ذلك كما تظهر وثائق التحقيقات الجارية الان ، وقال بعضهم بالعقلية المنغلقة التى تعودت حياة الظلام ... قال بالحرف :

ــ هل هو يريد ان يضعنا فى مكان الصدارة حقيقة ... او هو يريد استعمالنا فقط كنوع من حرب الاستنزاف ضدنا » !

كان انور السادات صادقا ، ولم يكونوا صادقين

وعاد التوتر يعكس نفسه على التصرفات عندما وقع اختيار انور السادات على الدكتور محمود فوزى لكى يرأس الوزارة الجديدة وكان اختيار انور السادات للدكتور فوزى يرتكز على عدة عوامل :

- انه تجربة غنية وحافلة
- ثم هو موضع احترام الناس فى الوطن
- ثم انه وجه دولى يطالع العالم وتعرفه الدنيا فى بلد هو بوضعه وظروفه فى قلب العالم ووسط الدنيا

وكانت هذه بداية المتاعب ، ولم تكن نهايتها ، رغم ان تشكيل الوزارة فى ذلك الوقت تم بتنسيق كامل معهم

والغريب ان اسم جمال عبد الناصر كان هو السلاح السحرى الذى استخدم فى التأثير على التشكيل الوزارى

قيل أن جمال عبد الناصر كان ينوى تعديل الوزارة ... وكان هذا صحيحا ، والذى يقرأ محضر

آخر جلسة لمجلس الوزراء ، راسها جمال عبد الناصر فى بداية شهر سبتمبر ؛ فانه يستطيع ان يستشف على الفور ان هناك تعديلا وزاريا فى الطريق .

لكن جمال عبد الناصر لم يكن قد كتب على ورق ما يريد

وهكذا راحت الاقوال تنسب اليه رغبة فى استبقاء هذا ورغبة فى استبعاد ذاك

واذكر ان بعضهم استشهد بى فى لعبة الكراسى الوزارية باعتبار اننى سمعت من جمال عبد الناصر نواياه ، واذكر اننى قلت :

ـ ان ذلك موضوع لم يعد يحق لاحد ان يخوض فيه لاننا لانستطيع ان نعتمد على ملاحظات عابرة وعارضة

ومن ناحية اخرى فان هناك ظرفا مختلفا الان ومن حق من يتحمل بمسئولية تشكيل الوزارة الجديدة سواء فى ذلك رئيس الجمهورية المنتخب او رئيس الوزراء المكلف ان يختار على أى نحو يكفل له ما يطلبه هو من الكفاءة والانسجام »

□

وحين بدأ انور السادات يتصل بالشعب مباشرة وبدا تجاوب الجماهير معه فان الحساسيات ازدادت لدرجة ان الازمات كانت تثور اذا أجرى

انور السادات مقابلة مع أى زائر بغير وجود رقيب

وكان أنور السادات يتصرف على سجيته ... سجية مصرى اصيل مفتوح القلب والعقل معا ولم يكن ـ للانصاف ـ يشعر بالتراكمات التى تحدثها تصرفاته على السجية

كان مطلوبا وضعه تحت الوصاية

ولم يكن الرجل مستعدا لذلك ... بل اغرب من ذلك أنه لم يشعر من جانبه بأية حساسية وكان لايزال يعطى ثقته لم يسحب منها شيئا

●

ومع بداية سنة ١٩٧١ دخلت المسائل فى طور كان محققا ان يؤدى الى كارثة

بدأت عناصر فى الاتحاد الاشتراكى تعبىء ضده ، وكان ذلك سهلا بسبب سرية التنظيم الطليعى الذى أقيم فى قلب الاتحاد الاشتراكى وبسبب الشلل التى تكومت فى وسط السرية

كانت السرية تسمح لثلاثة أو اربعة على قمة التنظيم بأن يوجهوا على النحو الذى يريدون

وكانت « الشلل » المكومة والمسربلة بغموض السرية تحدث خلطا بين الحركة العامة للتنظيم السياسى وبين المخطط المقصود والمدبر والمتناقض فى الحقيقة مع اهداف هذا التنظيم السياسى

ولكى نكون منصفين فإن التنظيم الطليعى للاتحاد الاشتراكى ضم عناصر من خيرة رجال وشباب هذا الوطن الى جانب مجموعة من انتهازيى السلطة فيه وهذا شىء منطقى

وكانت التعليمات والتوجيهات « **تنزل** » — كما يقولون — من أعلى ولا احد يعرف ، او يستطيع ان يعرف ، من اين مصدرها وذلك بسبب سرية التنظيم **وهذه السرية — مع الاسف — من اكبر الاخطاء التى حدثت فى تركيب الاتحاد الاشتراكى**

لم يكن مطلوبا ان تكون عضوية التنظيم الطليعى اعلانا فى الصحف بالطبع ، ولكن ذلك لم يكن يعنى ان يكون البديل عن الاعلان فى الصحف هو السرية وكأن التنظيم الطليعى عصابة من عصابات « المافيا »

كان فى التنظيم الطليعى — كما قلت — رجال وشباب من خيرة رجال وشباب هذا البلد ولا ينبغى ان يسىء الى واحد منهم ما تكشفه التحقيقات الان من انحرافات

ان هؤلاء جميعا كانوا ضحايا ولم يكونوا جناة

وكان دافعهم هو خدمة الوطن فى تنظيمه السياسى ولم يكونوا طلاب سلطة ولقد خدم كثيرون منهم بقدر ما أتيح لهم من الضوء

وليس ذنبهم أن الظلام كان دامسا

●

وكانت الاجراءات الخفية عملية تعزيز سريع للانحرافات التى احدثتها سرية التنظيم

فى تلك الفترة ، خمسة شهور من سنة ١٩٧١ ، زاد عدد التليفونات الموضوعة تحت المراقبة عشر مرات

وزادت اجهزة التسجيل الموضوعة فى المكاتب والبيوت ، وحتى حجرات النوم — بنفس النسبة : عشر مرات

وبعض هذه الاجراءات فى حالة الحفاظ على أمن الدولة القومى — وفى ظروف الدولة الحديثة — قد تكون مقبولة .

ولكن مثل هذه الاجراءات فى حالة السعى الى السيطرة الشخصية وتحقيق جبروت مراكز القوى — عدوان مخيف على ابسط حريات الانسان وفكره وعمله ... وحتى حماقاته اذا لم يكن فيها ما يتعارض مع الامن القومى وابجديات القانون

وتكشف التحقيقات الجارية الان اشياء اخرى كأنها الخرافات ... واستعمل كلمة الخرافات مدركا معناها واعيا بالمدى التى تصل اليه ... حتى صارت الاحوال الى التآمر المكشوف والجرىء

بل ... ماذا اقول اكثر من ذلك ؟

صارت الاحوال الى حد ان بعضا من أعلى القيادات فى هذا الوطن راح يستلهم السياسات من جلسات تحضير الارواح .

هذا حدث مع الاسف ، فى مصر سنة ١٩٧١ ، وبعد اكثر من قرن من رسالة التنوير التى حمل لواءها رائد التنوير فى هذا الوطن رفاعه رافع الطهطاوى . ومن أعجب العجب ان جلسات تحضير الارواح تركت هى الاخرى مسجلة على اشرطة لان مستلهمى الارواح كانوا لا يريدون ان تفوتهم عبارة أو كلمة او همسة مما ينطق به الوسيط نازلا عليه من المجهول

ولست اناقش احدا فى ايمانه بتحضير الارواح ، هذه قضية تختلف فيها الاراء ولكن ما اناقشه هو حق أى مسئول فى بحث استراتيجية الدولة العليا بواسطة تحضير الارواح وان تتقرر على هذا النحو مشاكل السلام والحرب ومعضلات الامن الوطنى والقومى

ان الاساليب الخفية ، كانت تعكس عجزا مروعا عن التقدم الى المواجهة السياسية .

كما ان الاساليب الغيبية كانت تعكس جهلا مريعا بالمقدرة على النفاذ عن طريق التحليل العلمى .

لكن القوة كانت مطلقة ، بمقدار ما كان الجهل مطبقا

وما حدث حدث

لا فائدة من الاسى عليه او المرارة بسببه

وما يعنينى الان هو :

كيف يمكن أن لا يتكرر ذلك مرة اخرى فى تاريخ مصر ؟

ان المعجزة لا تحدث ثلاث مرات متوالية

ولقد حدثت المعجزة فى المرة الثانية التى استفقنا الان من هولها بسبب ان مواطنا تحرك ضميره فذهب بأشرطته فى الليل الى رئيس الجمهورية يضع الحقيقة تحت تصرفه

ثم كانت بعد ذلك شجاعة رجل فى موقع المسئولية الاولى تصرف بجراة نادرة فى لحظات خطر محيق

ليكن ...

وليكن أن مصر هى كنانة الله يحميها من كل سوء

ولكن السؤال :

ـ كيف نستطيع نحن ايضا ان نحمى مصر ... كيف تستطيع جماهير مصر ان تحمى مصر باعتبارها صاحبة مصر

هذا هو السؤال

ولقد اجاب عليه انور السادات

باشارات هامة الى : بناء الدولة الحديثة ، بمؤسساتها السياسية والدستورية والعلمية والفكرية ، بسلطة تحالف قوى الشعب العامل ، بالحوار المفتوح على اساس كل القيم العظيمة التى تتمثل فى وثائق الثورة الاساسية وهى ميثاق سنة ١٩٦٢ وبيان ٣٠ مارس ١٩٦٨، وبجهد كل الرجال والنساء والشباب وحتى الاطفال فى هذا الوطن الذى يقف اليوم على الخط الاول لجبهة امته العربية فى مشهد من المشاهد الحاسمة فى التاريخ

هذا هو التحدى . . .

بعد السؤال

محمد حسنين هيكل